علي الطنطاوي في صحافة مصر

حاولت أن أتحدث عن علي الطنطاوي في فصل واحد، فوجدت ذكرياته في أجزائها الثمانية المستفيضة تغمرني بفيض من المعلومات لا يستقل به فصل، بل لا يكفيه كتاب برأسه، ففكرت أن أختار شريحة واحدة يدور حولها الحديث، هذه الشريحة هي آثار الطنطاوي في مصر، وقد تعمدت ذلك لأنه أصدر كتاباً خاصاً بذكرياته عن بغداد، وكتاباً بذكرياته عن دمشق، وكتاباً خاصاً بأندونيسيا، ولم يفرد كتاباً خاصاً بمصر، وأذكر أني كتبت إلى الأستاذ نادر حتاحت، صاحب دار المنارة التي تنشر مؤلفات الكاتب الكبير أرجو منه أن يجمع ما يخص مصر من آثار الكاتب الكبير في مجلد خاص، وزدت فوضعت له فهرساً يجمع هذه الآثار محدداً أماكنها، ولكن ظروف النشر لم تهيئ لهذا العمل الجاد أن يظهر إلى حيز الوجود، وها أنذا أقوم ببعض ما يذكر بهذه الآثار.

بقلم: د. محمد رجب البيومي
مصر

لقد تحدث الكاتب الكبير عن رحلته إلى مصر بدعوة من خاله الكاتب الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٩٢٨م، فوصف القاهرة في ذلك الحين وصفاً يحسن أن يكون مرجعاً لمن يتحدث عن هذه الحقبة، وقال: إنه أقام فترتين متواليتين بها، ولكنه استفاد فوائد جمة في مصر فقد عرف أصدقاء خاله من كبار الكتاب والمفكرين، وانتقل أسلوبه من طور إلى طور، إذ انتهى عهد التعبير الحماسي المحشو بالمبالغات، إلى عهد الرصانة الدقيقة، وقد فتحت له مجلة الزهراء صفحاتها، وهي من أكبر المجلات الأدبية في عصرها، فكتب بعض المقالات الخاصة بتعريف الكتب الصادرة، وبعض التراجم العلمية لعلماء مرموقين، وكان يوقع ذلك بإمضاء (محمد علي الطنطاوي)، ثم أتيح له أن يلتحق بدار العلوم طالباً، وشهد دروس العلامة الشيخ أحمد الاسكندري بالدار، وقال: إنه اقتفى أثره فيما بعد حين صار مدرساً للأدب. ولكن أعظم حادث أدبي أثر في حياة الأستاذ هو ظهور مجلة الرسالة لأنها أشرقت على العالم العربي إشراقاً ساطع البريق، وضمت عظماء الفكر الأدبي في مصر، وكانت مجلة السياسة الأسبوعية قد أدت دورها ومالت للغروب، فظهرت الرسالة لتأخذ مكانها، ولكن بمخالفتها في اتجاهها التغريبي، ونهجها الفرعوني، مخالفة ظهرت دلائلها في مقدمات الزيات الافتتاحية، وفي مقالات الصفوة من الكتاب، وعلى رأسهم الزيات والرافعي وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد أحمد الغمراوي، وقد تحول الدكتور

محمد حسين هيكل عن اتجاه السياسة الأسبوعية إلى اتجاه الرسالة بعد ظهورها، وذكر أسباب هذا التحول في مقدمة كتابه الرائع عن منزل الوحي.

نظر الأديب الشاب علي الطنطاوي إلى مشرب مجلة الرسالة الناهضة فوجده يتفق مع هواه الوجداني، وروحه الإسلامية، وشاء لنفسه أن يكون عضواً في أسرة الرسالة، لأن مواهبة الأصيلة ترشحه لذلك عن جدارة، فقد درس التيارات الثقافية في العصر الحديث شرقاً وغرباً، كما قتل كتب التراث بحثاً واستيعاباً في كل فروعها المختلفة تشريعاً وأدباً وتاريخاً، وكتب التراث كلمة لا يقف على مدلولها إلا من قرأ المكتبة العربية قدر طاقته، وقد قرأ الطنطاوي كثيراً من أسفار هذه المكتبة، وتحدث عن روائعها في مقالات تشهد له بالسبق والتبريز: وهو في مقتبل الشباب، وأذكر أن الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، تحدث عنه في هذه الحقبة في مقال جيد جعله تعريفاً لكتاب «أبو بكر الصديق» فأجاد الوصف الدقيق حين قال عن الأستاذ علي الطنطاوي[1]:

«الأستاذ علي الطنطاوي أو الشيخ علي الطنطاوي كما يحب أن يدعى، ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة، ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة، ثم درس القانون دراسة فقهية عميقة، وشارك في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سوريا مشاركة منتجة، فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقة، وفي سياسة الإصلاح مذهب، وهو ونفر من صحابته يمثلون في سورية الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تنكر القديم وعقلية تنكر الجديد، وليس الأستاذ الطنطاوي مجهولاً لدى قراء الرسالة فهو يطالعهم الحين بعد الحين بالفصول الممتعة في الأدب والتاريخ، ينقلها عن فكر خصيب، واطلاع واسع، ومنطق سليم، وإيمان صادق، وعاطفة نبيلة».

«وهذه السطور من جوامع الكلم حقاً، لأنها تضع فهرس كتاب يتحدث عن الطنطاوي إذ تجعل فصول الكتاب واضحة لمن يريد أن يكتب الكتاب، إذ أبرزت عناوين هذه الفصول في قوة وإبداع».

أقول بعد هذا الاستطراد: إن الأستاذ الطنطاوي عرف مشرب الرسالة من قراءة ما ظهر من أعدادها ولكنه أراد أن يوجهها وجهة إصلاحية، حيث تعنى بالهدف الأصيل للكاتب العربي الملتزم، فبدأ مقالاته في الرسالة بسؤال أدبي وجهه إلى رئيس التحرير يهتف به قائلاً[2]: أخبرني يا سيدي هل تنشر الآثار التي تنشرها، لأنها وافقت خطة معروفة، اختطتها لنفسها الرسالة في الأدب، أم أنت تنشر كل جيد يبعث إليك، لا تبالي منه إلا بشرف القول، وحسن الأداء، والبلاغة في التعبير. إن مذاهب الأدب كثيرة، ولكن القراء بين اثنين منها، مذهب الأدب للفن، ومذهب الأدب للحياة، أفنعمل وغايتنا الجمال الفني وحده؟ وسواء لدينا أكان هذا الجمال في مقطوعة ماجنة، أم قصة مفسدة، أم مقالة ملحدة؟ أم نعمل وغايتنا تسخير الأدب للقضية الكبرى، واتخاذه أداة لتحقيقها، ووسيلة من وسائل الإصلاح الاجتماعي والسياسي والأخلاقي؟».

معارك الطنطاوي في مجلة الرسالة:

١ - مع الزيات وأحمد أمين

والسؤال بذاته توجيه أكثر منه استفادة، لأن الطنطاوي ضن بالرسالة أن تنشر قصص الخلعاء من منحرفي الغرب مترجمة، وقصائد المرورين من متسكعي الشباب ماجنة غير ملتزمة، فربأ بالرسالة أن تكون كغيرها من مجلات الإغراء الخادع للشباب، وهو يعرف مكانة الزيات وحواريته، ولكنه أراد أن يأخذ عهداً وثيقاً لا تحلل منه ولا انفصام، وقد سارع الأستاذ الزيات بالإجابة الموجزة كعهده دائماً في جوامع كلمه فقال في حاشية المقال: [3] أما خطة الرسالة وغايتها، فقد رسمناها في العدد الأول، وما نشر فيها وما سينشر يسير مع هذه الخطة الملازمة، وأن الأدب هو التعبير الجميل عن العواطف والأفكار، وهذا التعبير يختلف باختلاف البيئة والتربية والطبيعة»، ثم ذكر الزيات أن الأستاذ أحمد أمين سيجيب مفصلاً القول في العدد القادم. والحق أن الأستاذ أحمد أمين قد كفى وشفى وأمتع، ولم يتئد اتئاد الزيات بل عجل يقول: «لك الحق كل الحق يا أخي أن تصرخ ونصرخ معك في وجه زعماء الأدب العربي، طالبين أن يلتفتوا إلى الأدب القومي، فالعالم العربي كله يجيش صوره بآلام وآمال، والأدب العربي يجب أن يعبر عن هذه الآلام والآمال، لك الحق أن تطلب من الرسالة.. أن تدعو الكتاب والشعراء إلى وجوه النقص كي يكملوها حتى إذا احتاج الشباب إلى الأناشيد وجدها، ولك أن تطلب من كُتاب الروايات أن يبحثوا

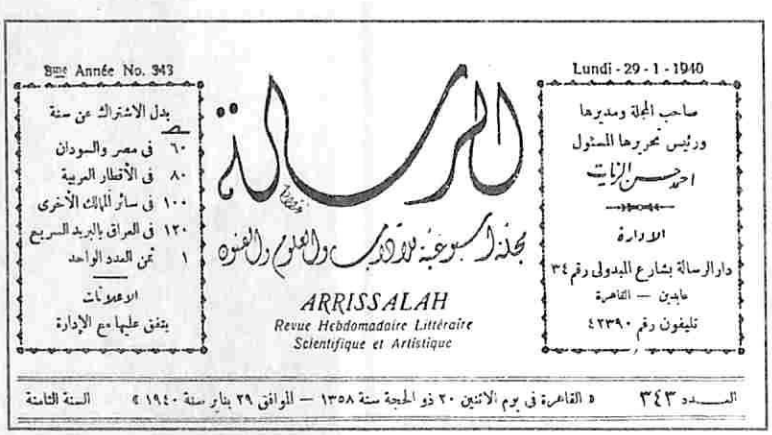

عن نواحي الضعف في الحياة الاجتماعية فيجلوها ويعالجوها.. ولكن ليس لك الحق في أن تطلب أن يكون الأدب كله للحياة لأن القطعة متى استوفت عناصرها الأدبية كانت أدباً، ولكن يجب أن يكون للمصلحين سلطة فوق سلطة الأدباء، فإذا رأى المصلحون أن ضرباً من الأدب يحل الأخلاق، ويفك عرى المجتمع حاربوه بكل قوة أو إذا رأوا أن ضرباً من الأدب في الأمة ضعيف يجب أن يقوى طالبوا بالإكثار منه بشتى الوسائل».

بهذه المقالة الرنانة التي نبهت الأستاذين الزيات وأحمد أمين إلى سرعة الرد العاجل دخل الأستاذ الطنطاوي مجلة الرسالة دخول الفاتح المنتصر، إذ هيأ الأذهان إلى ما سيقوله على صفحات المجلة، متسقا مع خطته التي دونها في سؤاله، ولكن الأستاذ الطنطاوي كان يرمز إلى معنى أكبر من المعنى الذي أشار إليه، هذا المعنى هو أن يجعل الرسالة مجلة إسلامية قبل كل شيء، وهو معنى يرحب به الزيات، لأنه في صميم تفكيره عالم دين تخرج أول ما تخرج في الأزهر الشريف، وإن كان يعلم أن البحوث لابد أن تتنوع في مجلة يقرؤها كل إنسان مهما كان اتجاهه، لذلك صمم الأستاذ الطنطاوي كما بدا من آثاره الكثيرة على صفحات الرسالة أن يكون للإسلام المجال الأول من هذه الآثار، وهو ما رحب به الزيات كل الترحيب.

لقد تتبع الأستاذ الطنطاوي مقالات الرسالة لأكثر كتابها في الشرق والغرب، فإذا وجد انحرافاً أو ما يشبه الانحراف بادر إلى تصحيحه في مقال نقدي أو في سؤال هادف مركز المعاني، فكان صاحب العين الساهرة المترقبة لكل نشاز يشذ به كاتب فيكشف عن عواره.

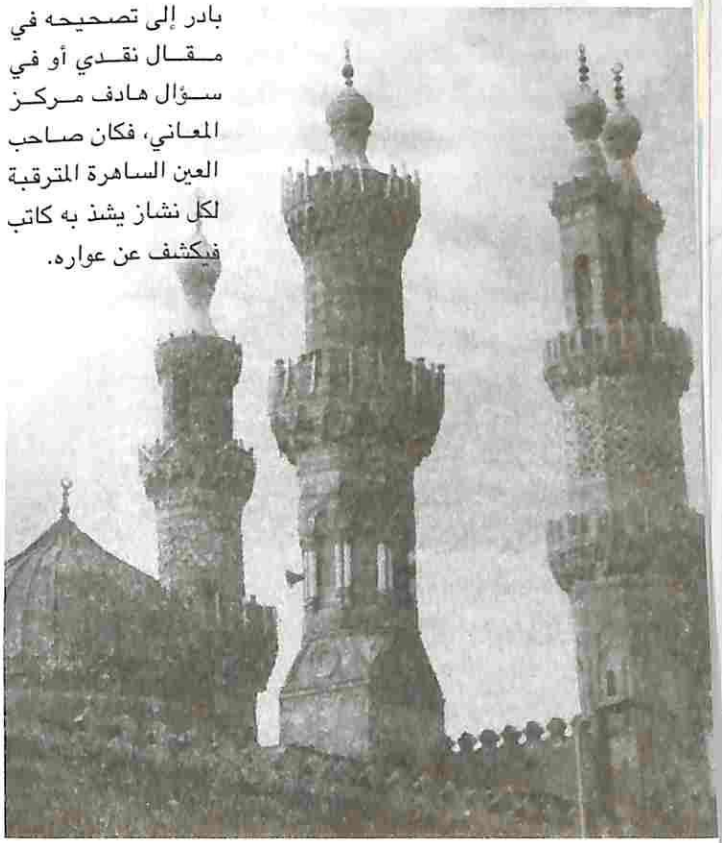

٢- مع كرم ملحم :

أذكر أن الكاتب اللبناني الفاضل الأستاذ كرم ملحم كرم، كتب مقالاً يتحدث فيه عن آثار هوجو ولامرتين و فولتير وروسو، فقال فيما قال: «والدين نفسه يقوم على الروايات، فما هو كتاب التوراة، وما هو الإنجيل، وما هو القران؟ أليس للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب؟». وقد قرأها الطنطاوي فذكر [٤] أنها كلمة ندت من قلمه صغيرة، ولكن فيها طبيعة كطبيعة الديناميت لا يمس شيئاً إلا جعله يباباً، فإذا كان الكاتب يعني دين التوراة، والإنجيل فلا ننازعه، ولا يكون لنا أن ننازعه فصاحب الدار أدرى بما فيها، وإذا كان يعني القرآن كأنه إحدى هذه الروايات فهذا ما أسأله عنه؟ وقد كتب توقيعه مشيراً إلى أنه «عضو جمعية الهداية الإسلامية بدمش»، وهو توقيع يكتبه الطنطاوي لأول مرة ليدل على معنى يجب أن يفهمه المنقود. والحقيقة أن الأستاذ الطنطاوي قد احتاط لدينه أمام القارئ المتعجل، أما القارئ الدقيق فيعلم أن روايات القرآن شيء، وروايات مشاهير الغرب شيء آخر. وقد سارع الأستاذ كرم ملحم كرم بالرد على سؤال الأستاذ الطنطاوي فذكر[٥] أنه يقصد الروايات الصحيحة ثابتة الحقائق، وهكذا روايات الكتب المقدسة وقال ما نصه: «أما أن نكون رمينا إلى الحط من منزلة الكتب المقدسة فذلك ما لا نفكر فيه، ولا يحق لنا أن نفكر فيه، فنحن نحترم هذه الكتب، وكيف لا نحترمها والملايين من البشر تدين بتعاليمها، وتؤمن كل الإيمان بآياتها وهي تطبع العقول على الخير، وتثقف النفوس، وتقودها إلى الطريق السوي، ولولا الدين لعم الإنسانية البلاء، وتفاقمت الشرور، وتعاظمت الويلات، وانغمس الناس في الرذيلة، وتاهوا كالأنعام..»

٣ - معركة الفقه الروماني:

هذا التيقظ الحذر قد كان ديدن الأستاذ الطنطاوي في جدل كثير ثار على صفحات الرسالة، وانتصر فيه الأستاذ للوجهة التي يرتضيها، فقد دارت معركة حول الفقه الروماني وصلته بالفقه الإسلامي، تحدث فيها الأساتذة عبد القادر المغربي، وصالح بن علي السنغافوري، ومحمد محسن البرازي، وأمين الخولي وعلي الطنطاوي، وأدلى كل كاتب بوجهة نظره، وكان من رأي الطنطاوي أنه لا صلة بعيدة أو قريبة للفقه الإسلامي بالفقه الروماني على النحو الذي ينحو إليه من قال بوجود هذه الصلة، واندفع الأستاذ محمد محسن البرازي إلى لوم [٦] من ينفون هذه الصلة، ويصفهم بقلة المعرفة، وقال عن الطنطاوي: إنه لم يتح له أن يدرس الحقوق الرومانية أكثر من غيره من الطلاب في معهد الحقوق بدمشق، ولم يتأت له النظر في تاريخ الحقوق، ولم يقيض له بعد أن يعرف ما ظهر في العالم حول هذه البحوث، وختم حديثه بقوله: «أولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية، وكره للثقافة الغربية

ولأوربا، لأن الحقيقة فوق الهوى» وقد قرأ الأستاذ الطنطاوي مقال الأستاذ البرازي، ورد عليه بمقال قال في خاتمته:[٧] «ونحن نكرر وصية الأستاذ الشاب لشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية، ونزيد (أو تعصب عليهما) وكره لأوربا والثقافة الغربية، ونزيد (أو قوة في عشقهما) فيسرفوا في القول حتى يجانبوا المنطق..

٤ – مع زكي مبارك:

وكان الدكتور زكي مبارك ذا صيال واقتحام في مجلة الرسالة، بحيث صار في حقبة من الحقب فارس النقد الصاخب على صفحاتها، وقد اشتط في نقد الأستاذ أحمد أمين اشتطاطاً جاوز النقد إلى غيره مما ينكره المنصفون، وكان لا يمنع قلمه من الاستطراد إلى أمور تحتاج إلى تدقيق وفحص، والأستاذ الطنطاوي لا يلتفت إلى نقده فيما جاء عن الأدب، لأن القول فيه يطول دون جدوى، ولكنه أخذ بمخنقه حين وجه إليه هذا السؤال[٨]: إنك يا دكتور تقول: كل ما تقرؤونه في الكتب التاريخية والدينية من وصف العرب في الجاهلية بالحمق والغفلة والطيش والخبال، كل أولئك الصفات الذميمة وضعت لغرض خاص هو تحقير الوثنية الجاهلية لتقوم على أنقاضها العقيدة الصحيحة، وكان من حق رجال الدين أن يضعوا في تشويه الوثنية الجاهلية ما يشاؤون لأنهم كانوا يرونها زيغاً في زيغ».

وهذا كلام خطير رد عليه الطنطاوي في نقاط يمكن تلخيصها، في أن التاريخ علم يتحدث عن أخبار الماضين، فإذا قال التاريخ ذلك راو عن راو، وكتابٌ عن كتابٍ فكيف نحكم عليه بالوضع دون دليل، وردُ الدكتور للكتب الدينية، وهي دواوين الحديث، ومجموعات التفسير، وتصنيفات الأئمة، وقد أصبحت حجة للمسلمين فيها يأخذون منه شريعتهم، يحتاج إلى دليل علمي لم يأت به الدكتور، ولا يستطيع، فكيف يقول ذلك دون برهان؟! وقد فات الأستاذ الطنطاوي أن يذكر أن القرآن الكريم نفسه قد وصف الجاهلية بالسفه وطيش الأحلام فكيف يأتي الوضع من رجال التفسير والحديث وأئمة المسلمين؟! ثم سأل الأستاذ الطنطاوي بعد ذلك: ما الدليل على أن الرواة اختلقوا الأخبار لتحقير الوثنية، أو أنهم منعوا رواية أنبائها؟ وهل في الإسلام طبقة تعرف برجال الدين؟! إن علماء الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء والأصوليين هم مؤلفو الكتب الإسلامية، فأي أولئك قد قاموا بالوضع؟ وما معنى قول الدكتور: إن ما جاء في الكتب التاريخية والدينية يدل على أن الوضع بها لتحقير الوثنية؟ والمعروف الثابت أن الوثنية هدمت أصنامها، وانتهت قبل وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فلم يكون الوضع بعد انتهائها الأبدي؟ والدكتور زكي الذي كان يتصدى لكل معارض، قد هرب من الإجابة هروباً مضحكاً إذ [٩] زعم أن الأسئلة التي ساقها الأستاذ الطنطاوي، قد تعرض القراء لفتنة شديدة إن استباح الإجابة بلا توفق ولا رعاية للمأثور من الأفكار الدينية. وهو تهرب مضحك لأن الدكتور مولع بمخالفة الرأي العام، بل يعد ذلك مدعاة تحرر، فلمَ لمْ يصدع بالمنطق المحبذ لرأيه إن كان يملك الدليل؟.

٥– معركة القصص الفني في القرآن:

ومن أظهر مواقف الأستاذ الطنطاوي النقدية موقفه من رسالة «القصص الفني في القرآن» التي أعدها الباحث محمد أحمد خلف الله بإشراف الأستاذ أمين الخولي، فقد رفض الفاحصان الكبيران الأستاذان أحمد أمين وأحمد الشايب الرسالة، وقال عنها أحمد أمين: إنها ذات جهل صريح. وقال أحمد الشايب: إنها ذات كفر صريح. وقال الطنطاوي: إنها ذات جهل وكفر معاً، لأن الكفر لا يأتي إلا من الجهل، وقد ترك الطنطاوي الطالب الناشئ، لأنه مدفوع إلى تلمس الشهرة الزائفة كما اندفع أناس من قبله طعنوا في كتاب الله، فكان لهم بذلك ذكر طائر بين الناس، وأعجب العجب في بلاد الإسلام أن المخطئ في غيرها يخزى من فعله، ويسارع إلى تصحيح الخطأ، أما المخطئ في بلادنا – المخطئ في أمور دينه – فيكون خطؤه مصدر مباهاة وزهو، وكأنه بإلحاده جاء بالنصر المبين. لقد ترك الطنطاوي الطالب المتسرع، واتجه إلى مناقشة الأستاذ المشرف، لأنه أعلن أنه متضامن مع صاحب الرسالة وأنه على حق، وأنه لا ينبغي الوقوف أمام حرية الفكر. فقال الأستاذ الطنطاوي ما قال في نقد الأستاذ المشرف، وإخاله كان عاطفياً في رده الأول [١٠] لأنه لم يذكر كلام الطالب لينقضه بل حط بثقله على الأستاذ المشرف ليتهكم به، وقد كان الأستاذ الطنطاوي حينئذ مشرفاً على تحرير مجلة الرسالة أثناء إقامته في مصر، في بعثة قضائية، لأن الأستاذ الزيات كان خارج القاهرة،

د. محمد حسين هيكل

د. أحمد حسن الزيات

في دور النقاهة من مرض ألم به، ففتح الأستاذ الطنطاوي مجال النقاش العلمي على صفحات الرسالة، وقام الأستاذ عبد الفتاح بدوي الأستاذ بكلية اللغة العربية بكتابة ثلاث مقالات ذات نقد هادف، ولكنها لم تبرأ مما وقع فيه الأستاذ الطنطاوي حين لجأ معاً إلى تحقير الطالب وتسفيهه، وهذا مما ينقص مقام النقد، لأن القارئ الواعي يتطلب الحقائق مجردة عن التسفيه والازدراء، وقد قال الله عز وجل في مناقشة أهل الكتاب ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ثم أعاد الأستاذ الطنطاوي الكرة مناقشاً الطالب وتاركاً أستاذه، فكتب مقالاً تحت عنوان [١١] (إلى خلف الله العامري) تحدث فيه عن معنى القصة أدباً وعلماً، وعن موقف القرآن من أخبار الماضين، وعن التمحك في أقوال الأصوليين دون فهم لما عنوه وبحثوه، وعن التمحك بالأستاذ الإمام حيث فهم من كلامه ما لا يفهمه ذو الذهن البصير، وكانت معركة على صفحات الرسالة، أدارها رئيس التحرير المؤقت الأستاذ علي الطنطاوي، وقد آتت هذه المعركة جدواها الصحيحة النافعة لأن الباحث المتعجل حين طبع الرسالة في كتاب مستقل حذف كثيراً مما كان موضع الاعتراض، وعمل على ظهورها في وضع أقل اعتسافاً! وأقول أقل اعتسافاً لأنها حملت كثيراً من الأخطاء التي قام بتصحيحها نفر من الفضلاء على صفحات الرسالة وغيرها، فلم يعبأ بهذا التصحيح، وقد كان فيما نشره الأساتذة أحمد أمين وأحمد الشايب وعبدالفتاح بدوي ومحمد الخضر حسين ومحمود شلتوت من تصحيح واضح لأخطاء الباحث ما يمنعه من معاودة الخطأ المنقود، لو كان قد استمع إلى منطق العقل، ولكنه آثر العناد.

أحمد أمين

تأثره بالرافعي ودفاعه عنه:

كان الأستاذ مصطفى صادق الرافعي حامل راية الإسلام في مجلة الرسالة. كانت مقالته الإسلامية تصلصل في قلوب القراء صلصلة مدوية فلا ينقطع أثرها إلا حين تتلوها مقالة أخرى على نمطها البياني الرائع، وتحليقها الإيماني الملهم، وكأن الله قدر للرافعي المجاهد ألا يطول عهده بالرسالة، فجعل له خليفة يسير على نهجه، ويترسم خطاه، لا أقول إنه يسير على نهجه البياني، فقد كان الرافعي في أسلوبه أمة وحده لم يبزه سابق، ولم يلحقه لاحق، ولكن نهجه الروحي في الاعتصام بمبادئ الإسلام، والهيام بالتاريخ الممتد لأبطاله الكرام، والوقوف على أسراره الحكيمة تشريعاً وتأصيلاً واستنباطاً، هذا النهج قد احتذاه نفر من كتاب الرسالة منهم عبد المنعم خلاف ومحمود محمد شاكر ومحمد سعيد العريان، ولكن الذي فاقهم جميعاً علي الطنطاوي، إذ كانت مبادئ الرافعي الروحية، وتحليقه السماوي في أسمى معارج الفكر، وصياله المنحمس على المناوئين لاتجاهه، كان ذلك كله مذهب علي الطنطاوي، وقد اعترف الأستاذ أنه تأثر بأسلوب مصطفى لطفي المنفلوطي ثم مترجمات الأستاذ الزيات الروائية، فكان لهما أبلغ الأثر في توجيهه، وكأنه نظر إلى سهولة أسلوبه، ووضوح بيانه فلم يشأ أن يقول إنه تأثر بالرافعي صاحب الغوص البعيد على المعاني، والصور البيانية ذات الخيال المجنح الذي يطربك من أفق إلى أفق، فيعز عليك أن تلاحقه في مراقيه الصاعدة، ولكني أرى أثر الرافعي واضحاً في اتجاه الطنطاوي، وإلا فكل قصصه التاريخية التي أبدع فيها غاية الإبداع كانت نواتها من وحي الرافعي. لم يغرب الطنطاوي إغراب الرافعي، ولم يغص مغاصه، ولكنه وجهه إلى الاقتباس من نبع التاريخ الإسلامي الفياض بما ضرب من مثال، وما اختار من أحداث، فقصص اليمامتين وفلسفة مهر، وأمراء للبيع، والأسد، وزوجة إمام، وقبح جميل، وجميع ما ظهر في وحي القلم نقلاً عن الرسالة كلها كانت ذات صدى بعيد التجاوب في نفس الأستاذ علي الطنطاوي.

وأذكر أنه كتب خطاباً للرافعي على صفحات الرسالة بعد أن قرأ قصة زواج فملكت عليه مشاعره، وغلبه إحساسه الدافق، فكتب يقول للرافعي من مقال ممتاز[١٢]:

«.. أقسم لقد سمعت هذه القصة، وحفظتها، وحدثت بها، وانحدرت بين أذني ولساني ورأسي عشرين مرة، ثم لكأني لم أسمع بها إلا الآن، وكأني كنت فيها في ليل مظلم، فطلعت علي مقالتك شمساً ساطعة، عرفت معها كيف تكون حصيات الليل لآلئ النهار، فما بالك بمن لم يسمع باسم سعيد، وما بالك بمن لا يعرف في الدنيا أدباً؟! لقد عابك بعضهم بالغموض، ورموك بالإبهام، فلما ظهر أن في الغرب شاعراً فحلاً مذهبه الغموض يتخذه ويدعو له، أصبح الغموض فناً من فنون الأدب، وعندي أن مئة قصة من مثل هذه القصة تنشئ الأدب إنشاء جديداً، وتخرج من الشيخ الهرم الفاني الذي ينتظر الموت شاباً قوياً مهيباً».

هذا الإعجاب البليغ البالغ قد دفع الطنطاوي إلى محاكاة الرافعي في بعض ما كتب، ولا أدري أين قرأت له، أنه احتذى الرافعي حين كتب قصة (عالم)[١٣] وقد جعل إهداءها إلى روح الأستاذ الرافعي، وهي تدور حول ترفع عالم الشام الشيخ سعيد الحلبي أمام إبراهيم باشا الفاتح المتكبر، فهذه المقابلة

اليسيرة بين الباشا والعالم جعلت الطنطاوي يكتب فصلاً بديعاً نحا فيه نحو أستاذه، وجاءه فيض من الخواطر الروحانية كبعض ما كان يتدفق على لسان الرافعي من شاهق السماوات! وكأني بالطنطاوي وقد أحس أن قراء الرافعي نمط خاص من الناس، وأن بيانه لا يبلغ مكان التأثير في نفوس العامة، فآثر أن يكون «منفلوطياً» في قصصه الأخرى، والذين في قلوبهم مرض يرون في أسلوب المنفلوطي آية سذاجة تبلغ السطحية، وهم كاذبون عن عمد، لأن البيان المشرق لم يعرف له رائداً في هذا العصر مثل صاحب النظرات والعبرات، أجل، لقد آثر الطنطاوي أن يذهب في غير اتجاه الرافعي حين كتب قصصه التاريخية الرائعة ولكنه استلهم الفكرة في الاتجاه من صاحب وحي القلم، وكنت آخذ على الطنطاوي أنه يكتب القصة في خمس عشرة صفحة ممتازة حقاً بتصويرها وتعبيرها ومغزاها، ثم يقول في الهامش (أصل هذه القصة سطران في كتاب كذا) فلم هذا التعليق؟ إنه يصدم القارئ بعد أن يعيش في جو القصة الرهيب، والناقد الأدبي يعرف سلفاً أن القصة مستوحاة من سطر أو سطرين حينئذ، فلماذا نصدم القارئ العادي بهذا التعليق؟

أما مظهر حب الطنطاوي للرافعي فقد ظهر في اشتراكه في الحومة المشتعلة التي أوقدها الأستاذ سيد قطب على أدب الرافعي، وقد كان الكاتب الشهيد - رحمه الله - في مقتبل شبابه حينئذ وفي أسلوبه اندفاع سريع المهاجمة والتطرف فيها، وقد قسا على الرافعي في مقال جرده فيه لا من الشعرية، فأمرها سهل، ولكن من الإنسانية، وعد قول الرافعي.

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

نمطاً من الوعظ المنبري، وأنا أحب سيد قطب حباً لا مثيل له، ولكني لا أعذره في هذا الشطط الجامح الذي يجعل الرافعي بعيداً عن الإنسانية، وما عرفت الإنسانية في أبدع مجاليها، كما عرفت في رسائل الأحزان وأوراق الورد والمساكين ووحي القلم، وهنا تجرد الطنطاوي للدفاع عن أستاذه في عدة مقالات نارية أخذت مكانها جوار مقالات أنصار الرافعي من أمثال محمود محمد شاكر ومحمد أحمد الغمراوي وإسماعيل مظهر ومحمد سعيد العريان! وأذكر أن الأستاذ الطنطاوي وجه للأستاذ الزيات خطاباً معاتباً يسأله لماذا شغل القراء بمقالات سيد قطب؟ وباطلها صريح، فكان جواب الزيات قوله[١٣] «الرسالة تجيب صديقها الأستاذ الطنطاوي بأن من مبادئها أن تكون صورة صادقة لأدب العصر، فلا تسجل مذهباً دون مذهب، ولا تتوخى أسلوباً دون أسلوب، ومعارك النقد ظاهرة مألوفة في عصور الأدب، عفت الرسالة عنها حيناً، ثم رأت من الخير أن تسجل هذه المعركة، لأن أدبي الرافعي والعقاد يمثلان وجهتي الثقافة في آفاق العروبة، فالقول فيهما إذا حسن، يعين المتأدب على الوجهة التي يوليها، وينعش الأدب من الخمود الذي هو فيه، ومن حسن القول أن يتكلم الناظر في الأدب بلسان الأدب، وأن يعتقد أن أدب الرجل شيء غير شخصه، فلا ينبغي أن يدخل الناقد في حسابه الحياة والموت، ولا الصداقة والعداوة، أما رأي الرسالة في الكاتبين العظيمين فقد سجلته في افتتاحياتها، فهي لا تتحمل من تبعات النشر غير ذلك الذي رأت».

تنوع مقالاته:

هذا مثل يشير إلى نقد الطنطاوي الثائر، أما الطنطاوي الهادئ الرزين في نقاشه فقد تجلى هدوؤه الحليم في مقالات كثيرة، توخت اللباب دون سواه، ومن أظهرها مناقشته للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف فيما كتبه في مؤلفه الذائع (أومن بالإنسان) حيث ذهب كلا الصديقين المتناظرين مذهب المخالفة، والحق أن القضية من الصعوبة بحيث لا يظهر فيها حكم حاسم، لأن الإنسان من ناحية يعلو حتى يحلق في الأوج، ومن ناحية أخرى يسفل حتى ينام في الحضيض، والحكم إذن على المجموع العام من السمات الشخصية للإنسان، لا على النادر القليل.

الرافعي

ولا يمكن أن نحصر الفيض الهتون الذي تدفق من يراع الأستاذ الطنطاوي على صفحات الرسالة والثقافة في مدى عشرين عاماً، ولكن الطابع الأدبي كان يحاور الطابع الإسلامي في اختيار موضوعاته، فحديثه عن وادي العقيق والأبيوردي، ووظيفة النقد يجاور حديثه عن مشكلات الشباب المسلم، وقضية الزواج في المجتمع الراهن، وداء الشباب المعاصر.

كاتب مسرحي:

ومن الملاحظ أن الطنطاوي أول من كتب مسرحية إسلامية مقتبسة من سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يكتب توفيق الحكيم مسرحية محمد، فكأنه وضع الخط الذي يجب أن يتبع في كتابة مسرحية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حيث التزم بكل وقائع السيرة في الفصل المسرحي الذي دبجه تحت عنوان «أبو جهل» التزم بكل وقائع السيرة دون جموح إلى الخيال، وهذا ما التزمه الأستاذ توفيق الحكيم ونص عليه في مقدمة كتابه، وهو التزام عسير لا يسير، لأن تنميق الحوادث الواقعية في أسلوب حواري مطرد، دون أن يتسع المجال لخيال يملأ الفجوات أو يرسم

الملامح مما يشق على غير الأديب الملتزم، ولا أدري لماذا لم يواصل الأستاذ تأليف فصول مسرحية مماثلة، لعله نظر فوجد توفيق الحكيم قد استلهم أحداث السيرة بما كان في نفسه فانتقل إلى القصة وغادر المسرحية لغير عود.

كتاب معاصر عن حقائق الإسلام:

أما الصوت الذي جلجل في الأسماع حقاً فهو صوت الأستاذ الطنطاوي حين دعا إلى تأليف كتاب معاصر يشرح حقائق الإسلام، دعا إلى ذلك في أواخر الثلاثينيات حين كانت المكتبة الإسلامية محتاجة إلى كتاب معاصر يقرؤه الشاب المنغمس في روايات الجنس، فيتطلع إلى أفق أرغد وأسعد، كانت المكتبة الإسلامية خاوية لا تجد فيها الكتاب المعاصر ذا الأسلوب المبين المقنع، وأذكر أن شاباً من طلاب الجامعة اتجه إلى فضيلة وكيل الأزهر إذ ذاك يسأله عن كتاب يقف به على حقائق الدين، فأشار عليه بقراءة شرح الإمام النووي لصحيح مسلم، ولم يستطع الطالب أن يجد إربته في شرح الإمام النووي، لأنه كتب وبوب لزمن غير هذا الزمن، ولن يقرأه غير من تربوا على كتب التراث من طلبة الأزهر وأشباههم، هذه الحاجة الماسة إلى تأليف كتاب عن الدين الإسلامي دعت الأستاذ الطنطاوي إلى تكرار الحديث عن هذه الضرورة الملزمة، تحدث باقتضاب في مقالات متناثرة، دون أن يجد الصدى المتجاوب، ثم رأى أن يطرق الباب بعنف خاص، فكتب أولاً توجيهاً رائعاً تحت عنوان (سؤال إلى المفكرين من علماء المسلمين) قال فيه ما فحواه: إننا نتفق على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وأنه يجعل من المتمسكين به قوة بشرية ممتازة في العلم والمال والحضارة، فكيف يتفق هذا مع وجود أحكام في الفقه لا تصلح لهذا الزمان؟! فالأمم المتقدمة اليوم لا تستطيع الاستغناء عن المصارف والبنوك، والربا؟ ما هو النوع المحرم الذي حرمه الله وينطبق عليه الإثم؟ فأين هي البحوث التي تحدد الربا، وتبين ما يتصل به من المعاملات وما ينفصل عنه؟ إن الفقهاء يغرقون في بحوث العبادات وحدها، ويغفلون عما يشغل البال من هذه البحوث ذات الأهمية القصوى في الحياة [١٤] ثم قال في الختام: هذا سؤال أوجهه إلى المفكرين لا إلى المحافظين من علماء المسلمين، وقد سارع للإجابة عالم الشام الكبير الأستاذ محمد بهجة البيطار فكتب بحثاً ضافياً تحت عنوان (المعاملات في الإسلام)[١٥] أجاب فيه عن الأمثلة التي وجهها الأستاذ الطنطاوي، وقد بدأه بتأييد دعوته إلى النظر في أحكام التشريع التي يتطلبها العصر الراهن، وبسط القول في مسائل الشركات الاقتصادية المعاصرة، ومعاملات البنوك في المصارف المتنوعة في شتى البلاد الإسلامية ثم اتكأ على تفسير المنار لآيات الربا وعمل المصارف فنقل أقوال السيد محمد رشيد رضا الخاصة بهذا الصدد، وتحدث عن المجلة الشرعية التي كانت تصدر في دار الخلافة خاصة بالمسائل المستحدثة وغيرها، ثم وقفت عن السير بعد اتجاه تركيا إلى العلمانية! والأستاذ بهجت البيطار مشكور على إسراعه بالإجابة، وقد كان ذلك منذ خمسة وخمسين عاماً! وفي هذا الأمد اتضحت هذه المسائل على وجهها المريح، وألفت المجامع العلمية للبحوث الفقهية في مصر والسعودية وغيرهما، فانجلت الحقائق أحسن جلاء، ورأينا اليوم ثمرات هذه الدعوة التي سبق إليها الطنطاوي دانية القطوف.

كتاب في الدين الإسلامي:

هذا عن أحكام البيوع والمعاملات، أما خصائص الدين الإسلامي، وإيضاح تعاليمه السديدة في شؤون الدنيا والآخرة، وضرورة تأليف كتاب معاصر يلم بذلك كله، فقد جلجلت دعوة الأستاذ الطنطاوي إليه في مقال نشره تحت عنوان «كتاب في الدين الإسلامي»[١٦] قال فيه: إنه درس للطلاب في شتى مدارس الدول العربية، فحدثهم عن الإسلام ومحاسنه وتعاليمه، فكان الطلاب يسألونه عن كتاب يشرح هذه المحاسن والتعاليم ليجدوا فيه خلاصة وافية بأمور دينهم كما يجدون خلاصات دقيقة لمسائل الهندسة والطبيعة، فلا يستطيع الأستاذ أن يدلهم على هذا الكتاب، لأن كتب التراث لا تقدم الزاد الميسر لطالب اليوم، وقد صمم الأستاذ أن يبدأ بكتابة فصل من هذا الكتاب على صفحات الرسالة داعياً فضلاء الكتاب إلى متابعة الحديث بعد أن وضع لهم فهرساً يشمل ما يجب أن يحتويه الكتاب، ولولا خوف الإطالة لنقلت هذا الفهرس الممتاز حقاً، ثم أتبع القول العمل فنشر عقب هذا النداء الفصل الأول من الكتاب تحت عنوان (مقدمة لبحث الإيمان) تحدث فيه[١٧] عن معنى الإيمان اللغوي، وعن أنواع الإيمان، وعن الإيمان في الدين الإسلامي، والفرق بين الإيمان والإسلام، وضرورة الإيمان للإنسان وأثره في سعادة الحياة، وعن الإيمان الكامل، وعدم جدوى الصالحات بلا إيمان، وأسلوب هذا الفصل واضح بيّن يقرؤه الطالب

والأستاذ معاً فيستفيدان، وكعادة الأستاذ الطنطاوي طلب من شيخه وصديقه الأستاذ محمد بهجة البيطار أن يكتب الفصل الثاني من الكتاب، وينشره بالرسالة فأسرع الصديق للإجابة، ونشر فصلاً تحت عنوان [١٨] (كتاب في الدين الإسلامي) تحدث فيه عما يراد بعلم التوحيد مبيناً ما يلحظه على كتب العقائد المتداولة، ما كتب منها على طريقة السلف، وما كتب على طريقة الخلف، ثم أشار إلى أنواع التوحيد الثلاثة بإفاضة وإشباع، وختم الفصل بحديث عن التوسل، راجياً من العلماء أن يبذلوا جهودهم في تقريب كتب السابقين إلى الأذهان إذ يتحدثون عن مضمونها بلغة العصر» وإذن فقد كتب من الكتاب فصلان، وبقي أن يستجيب العلماء!

وقد كان لدعوة الأستاذ الطنطاوي صدى واسع بين شباب الأزهر من الطلاب، لا بين شيوخه من الأساتذة فأجمع الشباب على تأييد الأستاذ في اتجاهه، وعجبوا كيف يغفل علماء الأزهر عن واجب هم أحق الناس بالقيام به، وأذكر أن صديقي الشاعر الأستاذ عبد العليم عيسى، وكان طالباً بكلية اللغة العربية كتب كلمة [١٩] حارة تحت عنوان «أين علماء الأزهر» قال فيها: «إن نفسي انطلقت لهذه الفكرة - فكرة الأستاذ الطنطاوي - وانتظرت ما سيكون من علمائنا، ولكن ماذا كان؟ كان أن ذهبت دعوة الأستاذ لديهم هباء، فلا حس ولا حركة ولا حياة.

إن أساتذتي في الأزهر لا يهمهم في الحياة إلا صفو أنفسهم وفخفختها، أين الدجوي والجبالي واللبان وأبو العيون والأورن والجزيري وأبو دقيقة وأمين وغيرهم من هؤلاء» وتعليقاً على قول الصديق عبد العليم عيسى أذكر أن نفراً من هؤلاء الأفاضل كتبوا كثيراً في المجلات عن هذه المسائل، ولكن لم تتح لهم وسائل النشر كي يجمعوا ما كتبوه في كتب مستقلة، وقد انجلت هذه الغاشية، فظهرت كتب كثيرة لأزهريين وغير أزهريين تتحدث في هذا الشأن الخطير، ومن أبرزها كتاب الأستاذ علي الطنطاوي نفسه الذي كتبه تحت عنوان «تعريف عام بدين الإسلام» وهو كتاب ممتاز في بابه ولا ينقصه غير فصل عن الأخلاق في الإسلام.

من الرسالة إلى الثقافة:

لقد كانت مقالات الأستاذ الطنطاوي بالرسالة ذات صدى بعيد عند القراء وبخاصة في الدوائر الدينية، فازداد انتشار الرسالة، وعرف الأستاذ أحمد أمين صاحب مجلة الثقافة منزلة الأستاذ عند القراء، فحاول أن يحثه - راجياً - على الكتابة في الثقافة، وجاءت رسالة الدكتور أحمد أمين إلى الطنطاوي، وكان قد ترك التدريس إلى القضاء، وعكف على عمله الجديد حتى يعرف أبعاده عن خبرة شخصية، فقلّت كتاباته في الرسالة، ورآها الأستاذ أحمد أمين فرصة اقتنصها فأرسل إليه الأستاذ الطنطاوي مقاله الأول للثقافة تحت عنوان «كتاب[٢٠] مفتوح إلى الأستاذ أحمد أمين، تحدث فيه عن جانب من حياته في دمشق والقاهرة، وألمّ بما يعانيه من ضيق، إذ قال في صراحة: إن مصر إذا أردت الحق لا تحب إلا أبناءها ولا تبسم إلا لهم، فواحد الأديب المصري مئة، ومئة غيره لا تساوي عندها واحداً، لأن الكتاب المصري يجد التقريظ والذيوع، والكتاب الآخر يجد الإهمال من نقاد مصر، وكان الأستاذ أحمد أمين صادقاً حين قال في تعقيبه على خطاب الأستاذ: أرسلت الثقافة إلى الأستاذ الأديب الدمشقي صاحب الإمضاء (ع) ترجوه الخروج عن صمته، والعودة إلى تلحينه، وقد عرفت منه كاتباً قديراً، وأديباً متقناً، فبعث بهذا الكتاب، وأباح لنا نشره، ولعل هذا يكون باعثاً للأستاذ أن ينفس عن نفسه، ويمتع القراء بآثاره، والأستاذ يعتب على الصحف والمجلات المصرية والثقافة أنها تشيد بالتافه من نتاج مصر، ولا تشير إلى الجيد من نتاج الأقطار العربية الأخرى كالشام والعراق، وقد سمعنا هذه الشكوى مراراً، وقد يكون فيها شيء من الحق، ولكن أكبر الظن أنه إهمال غير مقصود، ولعل كتاب الشام والعراق يحملون أيضاً كثيراً من التبعية، فالكتب الشامية والعراقية تظهر بين أظهرهم،وهم أعلم الناس بها، فلو كتبوا عنها ونقدوها نقداً قيماً، وعرفوا بها تعريفاً صحيحاً لما تأخرت المجلات المصرية عن نشر مقالاتهم، والثقافة على الأقل تلتزم بهذا وتتعهد به، وتعتقد أنها تسد بذلك نقصاً واضحاً فيها!».

ولعل من الطريف أن أذكر أن الثقافة فتحت باباً للتعريف بكتب الشام، وقد كتبه الأستاذ (فواز) وهو اسم مستعار للأستاذ صلاح الدين المنجد، كما شارك في التعريف بكتب الشام كاتب آخر، فنشرت له الثقافة ما كتب، أما وجه الطرافة فهو أن الأستاذ الطنطاوي نفسه قد كتب في مجلة الرسالة يحتج على تشجيع الأغرار الذين يتحدثون عن كتب الشام بما لا يجيدون! وكانت نظرة خاصة به، لأن التعريف لا يستلزم الإحاطة والغوص، فهو إن تقدم وإن تأخر تعريف، ثم توالت مقالات الأستاذ الطنطاوي في الثقافة فأسعدت القراء.

وبعد،

أتراني بلغت ما أريد من الحديث عن دور الأستاذ الطنطاوي في صحافة مصر؟ إذا بلغت ذلك فقد ارتحت، وإلا فقد فعلت ما أطيق، رحمه الله رحمة واسعة وأسبغ عليه ثوب الرضوان. ■

الهوامش:

(١) الرسالة العدد ١٠١
(٢) الرسالة العدد ٢٢
(٣) الرسالة العدد ٢٣
(٤) الرسالة العدد ٦٣
(٥) الرسالة العدد ٦٧
(٦) الرسالة العدد ١٠٨
(٧) الرسالة العدد ١١٠
(٨) الرسالة العدد ٣٢٣
(٩) الرسالة العدد ٣٢٥
(١٠) الرسالة العدد٧٤٢
(١١) الرسالة العدد ٧٤٤
(١٢) الرسالة العدد ٦٩
(١٣) الرسالة العدد ٢٦٠
(١٤) الرسالة العدد ٣١٦
(١٥) الرسالة العدد ٣٢٣
(١٦) الرسالة العدد ٣١٤
(١٧) الرسالة العدد ٣١٨
(١٨) الرسالة العدد ٣١٩
(١٩) الرسالة العدد ٣٢٠
(٢٠) مجلة الثقافة العدد ٢٣٠

(*) انظر الهامش (١) ص٧ من كتاب قصص من التاريخ وقصة عالم في صفحة ٢٠٢ من الكتاب نفسه.